الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٢٥٧ — الثلاثاء ٣ من ذي الحجة سنة ١٣٦٢ — ٣٠ من نوفمبر سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

صفحة			صفحة		
١	في أسباب الحروب	للدكتور محمد عوض محمد	٢٤	بين هلال على الطريق ...	للأستاذ علي الطنطاوي
٥	محمد بن عبد الوهاب ...	للأستاذ أحمد أمين بك	٢٧	أدب النهضة	« « «
٨	كتبي	للدكتور أحمد زكي بك	٢٨	عودة الأم	للدكتور محمد مندور
١٢	معجم الزركلي	للأستاذ [illegible]	٢٩	الخيرة المجهولة (قصيدة)	للأديب أحمد أحمد النحاس

في أسباب الحروب

لقد ألفنا أن نرى الحروب تدور رحاها بين الأمم ، حتى بات أكثرنا يتوهم أنها ظاهرة لازمة للمجتمع البشري في جميع العصور والأقطار . وقد ثبتت دراسة التاريخ — على النحو الذي ندرسه به الآن — هذا الوهم في أنفسنا ، حتى إن أكثرنا لا يكاد يفيق من تأثيره ، لكي يتساءل عن الأسباب التي تدفع الناس إلى شن الحروب . وبات أكثرنا مؤمناً بأن قيام الحروب أمر لا مفر منه ، ولا محيص عنه ؛ فصار مثلنا كمن يعيشون في الظلام الدامس ، لا يعرفون النور ولا يدرون عنه شيئاً ، فهم لهذا يعتقدون أن الظلام الحالك شيء طبيعي ، لا وجه لاستنكاره ، أو للتفكير في الخروج عنه ...

لم يخل الأمر في بعض العصور من أن ينهض كاتب أو مفكر أو شاعر فيقول كلمة في ذم الحرب ، على طريقة الشاعر زهير المزني حين يقول :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم
وما هو عنها بالحديث المرجّم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
وتضر إذا ضريتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحى بثفالها
وتلقح كشافاً ثم تنتج فتتئم

ولكننا إذا كنا قد سمعنا من آن لآخر صوتاً يذم الحرب ويلعنها ، فإننا لم نسمع صوتاً قوياً عالياً ينادي بأن الحرب عبث في عبث ، ويستنكرها في صراحة وجلاء ، ويرى أن من السخف أن يظن أنها من الظاهرات التي لا بد منها في العلاقات البشرية . لم نسمع مثل هذا الصوت قوياً جلياً ، إلا في زماننا هذا ، وبوجه خاص منذ الحرب الماضية . فإن القرن العشرين — كما امتاز بابتكار أفظع أدوات الحرب ، وأعظم وسائل القتال تخريباً وتدميراً —

فإنه امتاز أيضاً بأنه قد ولدت فيه المدرسة الحديثة التي تتحدى القائلين بأن الحرب لا بد منه؛ وتتحدث عنا أن من الممكن خلق الوسائل التي تحفظ السلام بين الأمم، وتقضي على سنة العدوان بين الشعوب، أو على الأقل تجعل مثل هذا العدوان بين الدول كالعدوان بين الأفراد، جريمة موجهة إلى المجتمع البشري كله، يلقى مرتكبها جزاءه، كما يلقاه أي فرد من الأفراد في أي مجتمع منظم.

آمن كثير من الناس بهذا المذهب الجديد، وأخذوا يعملون على تحقيقه. ولا شك في أن الرسل الأول في هذا الميدان كانوا يقابلون بشيء غير قليل من التهكم والسخرية؛ أو على الأقل كان الناس ينظرون إليهم نظرة الشفق الأخف على أولئك الضاربين في البيداء والنافخين في الرماد. ولكن هذه الصرخات لم تلبث أن نفذت من الآذان إلى القلوب، وأخذ عدد [illegible] حتى أصبحت تضم جموعاً كبيرة [illegible] عظيمة النفوذ. وهنالك فريق آخر كبير العدد أيضاً [illegible] يشك في أن من الممكن تحقيق هذه الأمنية، كحلم السلام بين الأمم حلم جميل، ولكنه أجمل من أن يحققه الزمان. وهم مع ذلك لا ينفرون من الدعاية للسلم، بل ويتحمسون إليها، ويشجعونها؛ لأن فظاعة الحروب الحديثة قد دعتهم لأن يتمنوا الخلاص من هولها بأي وسيلة كانت. وهم لذلك ينظرون إلى دعاة السلم الدائم كأنهم قوم يقومون بتجربة، ولا يريدون أن يقيموا الصعاب في سبيلها، لأنهم يتمنون نجاحها، ولو أنهم يشكون في هذا كل الشك.

ولكن دعاية السلم في حاجة إلى شيء أعظم وأقوى من هذا الموقف السلبي المشوب بالعطف أو الإشفاق ولو أن العالم ليس فيه سوى طائفتين من الناس: طائفة تعمل للسلم الدائم، وأخرى تنظر إليها نظرة الانتظار والإشفاق، لما كان هنالك ضير كبير... ولكن هنالك — ويا للأسف — طائفة ثالثة، هي طائفة تجار الحرب، الذين يؤذيهم أن ينتشر العدل والإنصاف بين الأمم. لأن هذا يكفكف من غربهم، ويذودهم عن حقوق الشعوب التي يريدون أن يسطوا عليها، ويستهلكوا حرماتها. إن هذه الفئة قد تكون صغيرة العدد، ولكنها عظيمة النفوذ، منتهزة للفرص، قوية الشكيمة، لا تتورع عن ارتكاب أكبر الآثام من أجل الوصول إلى بغيتها وتحقيق مآربها، والإبقاء على الحرب والمحافظة عليها؛ لأن هذه هي تجارتهم التي منها عيشهم وثراؤهم. ولا شك في أنهم لن يسلموا بزوال الحرب، وسيبذلون كل ما في وسعهم من جهود مستميتة لكي تبوء جميع الدعايات [illegible] بالفشل.

هذه الطائفة تشتمل على كثير من الأفراد الذين يشغلون [illegible] الحاكمة، وكثير منهم يتولى الحكم [illegible] النفوذ المادي والتملق؛ فتراهم حين [illegible] لإقامة السلم الدائم بين الشعوب، يتظاهرون بأنهم أعظم المؤيدين وأكبر أنصار السلام، وحتى إذا خلا بعضهم إلى بعض سخروا من تلك الدعاية، وتآمروا على إفسادها والقضاء عليها؛ فهم يرعون مع الراعي في العلانية، ويعيثون مع الذئب في السر والخفاء.

أولئك ألد أعداء السلم، وأكبر عقبة في سبيل التقدم. هم الذين أفسدوا كل محاولة لوضع السلم الدولي على أساس وطيد؛ هم الذين أغروا بالتمييز في معاملة الشعوب والأجناس، وبأن ما يعد جريمة في الغرب قد لا يكون جريمة في الشرق؛ هم الذين أفسدوا كل محاولة للضمان المشترك بين الدول منذ معاهدة فرساي إلى وقتنا هذا؛ وهم الذين منعوا التعاون بين أمريكا وبريطانيا لوقف عدوان اليابان على الصين في عام ١٩٣١؛ وهم الذين أفسدوا عصبة الأمم، وهم جديرون بأن يقضوا على أي نظام عالمي جديد لإقامة العدل والسلم بين

الأمم . لاشك في أنهم عندما جمعوا ميثاق الأحلاف صفقوا له جهاراً وهتفوا له أمام الناس ؛ ثم لم يلبثوا حين خلوا إلى أنفسهم أن استلقوا على ظهورهم من شدة الضحك .

إن أول واجب على دعاة السلم أن يعترفوا بوجود هذه الطائفة ، وأن يدركوا أن من العبث أن يقال إن هذه الحرب هي آخر الحروب جميعاً ، بل لابد أن تتلوها حرب تشن على تلك الفئة الضارية ، حتى تنكسر شوكتها ، وتزول آثارها من الوجود . وهنالك يجوز القول بأن العالم سينعم بالسلم الدائم ، ويتحرر تحرراً أبدياً من وباء الحرب .

لهذا كان من اللازم أن تنال الدعاية للسلم تأييداً عاماً قوياً ، وألا يكتفي الناس بالنظر إليها نظرة الشك والتندر ؛ فإن مهمة السلم أجل من أن تتحقق من غير جهد شاق طويل ، والعقبات التي تقف دونها أشد وعورة من أن تغلب عليها بالهمة الفاترة ، والجهود الضعيفة .

***

لا يزال في العالم كما قدمنا عدد كبير جداً من الناس يتوهم أن الحرب شر لابد منه ؛ ومع ذلك فإن المرء إذا أطال النظر والتفكير في أسباب الحروب الحديثة — وأخص الحديثة لأن المفروض أننا أدرى بها وبالبواعث التي أدت إليها — وطالع ما كتبه المؤرخون ورجال الدولة ، وبحث الوثائق الرسمية والتقارير ، وكل شيء يمت إلى تلك الحروب ، فإنه من غير شك سيندهش ويحار لتفاهة الأسباب التي دفعت دولاً عظيمة إلى خوض غمار الحرب ؛ ويرى في وضوح أنه قد كان من الجائز جداً أن تمر [illegible] الأزمة ، دون أن يطلق مدفع أو تسفك قطرة من دم ، وأن تجنب الحرب لم يكن الأمر العسير الشاق .

لست أريد الآن أن أعرض لأسباب الحروب الحديثة أو أقدمها ، فإن لهذا الأمر الخطير مجالاً غير هذا المجال ؛ ولكن هذه الخواطر التي ذكرتها كانت تتردد في نفسي منذ أخذت أفكر في حالة الدولة الإيطالية في الأسابيع الأخيرة ، أي منذ أن أعلنت الحرب على ألمانيا . لا شك أن أمامنا هاهنا ظاهرة عجيبة تسترعي الانتباه ، وتبعث على التأمل ؛ فإن إيطاليا قد شنت على الحلفاء حرباً شعواء ، ألقت فيها بأسلحة قائدها الأكبر ثمانية ملايين من الحراب ، ولم يكن عملها هذا صادراً عن تسرع وطيش ، بل عن تدبير ووزن وتقدير . ولم يكن هنالك حادث استفزها فلم تستطع عليه صبراً ؛ أو إهانة وجهت إليها ، فرأت أن الشرف الرفيع لابد أن تراق على جوانبه الدماء . بل لقد كانت في موقف تغبط عليه ؛ فالحلفاء يسترضونها لكي تظل على الحياد ، وألمانيا تلتمس لها — إذا صح ماقاله رئيسها — كل عذر عن تخلفها عن خوض غمار الحرب . وحالة الحياد مثمرة أشد الإثمار ، لا تساوي عليه من المكاسب والأرباح والمغانم التي تمكن لإيطاليا أن تخرج من هذه الحرب وهي أغنى الدول وأوسعها ثروة ، وأوفرها تجارة . وهي [illegible] مثقلة بتلك الملايين الخيالية من الحراب [illegible] عن زينة الجنود ، وتحسب لها [illegible] لم تمتحن في حرب ولم تجرب في قتال حقيقي . وهنا إلى جانب هذا إمبراطورية عظيمة في إفريقية الشرقية ، لم يمض على تأسيسها سوى أعوام قلائل ، وهي في حاجة شديدة إلى عهد طويل من الهدوء والاستقرار لكي تؤتي ثمرها ، ويتم تكوينها .

ورغم هذه الاعتبارات القوية التي تغري بالتزام الحياد ، والتمسك بأهداب السلم ، قرر قادة إيطاليا — وهم رجال عقلاء مجربون — أن يزجوا ببلادهم في غمار الحرب . ولابد لنا ، نحن الذين نشهد هذه الأحداث العجيبة أن نحكم بأن هنالك أسباباً قاهرة جعلت قادة إيطاليا العقلاء المجربين الموصوفين بالنبوغ والبراعة ، يعدلون عن تلك المكاسب والمغانم الدانية التي يقبضون عليها بأيديهم ، وينصرفون عنها إلى مغانم ومكاسب بعيدة عنهم ، وليست هي في متناول أيديهم ، ولابد أن يخوضوا لها حروباً وأهوالاً . إن هذه الخطوة الهائلة لم يخطها قادة إيطاليا

إلا بعد تبصر وإمعان فكر . ولا بد لنا أن نفترض أنه قد كانت لديهم أسباب قوية دفعتهم إلى المسلك الوعر الذي سلكوه . ولا شك أن المؤرخين سيجهدون أنفسهم ، ويجهدوننا معهم ، في استنباط تلك الأسباب وعرضها أمام أعيننا عرضاً مبوباً مرتباً ، لكي يطلع عليها طلاب علم التاريخ ، ويطمئنوا إلى أن الدولة الفاشستية قد أقدمت على خوض غمار الحرب مع ألمانيا ، على دولة بريطانيا وفرنسا ثم روسيا وأمريكا لأسباب معلومة مفهومة .

وإلى أن تتم هذه الإجراءات التاريخية ، تشغلنا هذه الحرب بأحداثها وأهوالها ، ومفاجآتها وتقلباتها ! وتمضي السنون والأشهر ثم ننظر : فإذا الدولة الإيطالية تشن الحرب من جديد ، وتعلن الويل والثبور مرة أخرى على رءوس الأعداء ، ولكن هؤلاء الأعداء ليسوا دولة بريطانيا وفرنسا وروسيا وأمريكا ، بل أصدقاء الأمس من الألمان وشركائهم من قبل في الحرب [illegible] معقد الآمال الإيطالية ، ومشتهى [illegible] وهكذا شاهدنا انقلاباً عجيباً ، [illegible] دوراً ، والشمال صار جنوباً ، والسلاح الذي كان يشهره الألمان وجهه إليهم ، والسيف الذي كان يؤيدهم يشهر عليهم . ولا شك أن لهذه الحرب الجديدة أيضاً أسباباً قوية ، سيشرحها لنا المؤرخون في الوقت المناسب ، ويعرضونها أمام أعيننا مبوبة مرتبة ، كما شرحوا لنا من قبل في مجلدات ضخمة أسباب الحرب العالمية الأولى ، وأسباب الحرب السبعينية ، وغيرها من الحروب الطاحنة الصاخبة .

وإلى أن تتخذ هذه الإجراءات التاريخية ، لا بد لنا أن نعجب من أن دولة إيطاليا ، التي كانت بالأمس معدودة من الدول الكبرى ، قد استطاعت أن تسلك في هذه الحرب مسالك أشد إثارة للدهشة والعجب من مسالكها في الحرب الماضية . فلقد لبثت في تلك الحرب تتربص قسماً ، لأنها وهي حليفة دول الوسط لم تلبث — على الأقل — أن تبقى على الحياد ، بل انضمت إلى الحلفاء ، وشنت الحرب على ألمانيا . ونحن لا ننكر أن إيطاليا في ذلك كانت بينها وبين بريطانيا وفرنسا صداقة أكيدة ، ومودة وطيدة ، ولهذا لا نستنكر انضمامها إلى جانب الحلفاء . ولكن إذا كانت خطة الحق والصداقة توجه إيطاليا نحو معسكر الحلفاء ، فلماذا اختارت أن تحالف ألمانيا والنمسا ؟ لماذا تقطع تذكرة إلى برلين ، وهي تريد أن تسافر إلى باريس ولندن ؟ لا شك أن لهذا أسباباً قد شرحها المؤرخون من الطليان وغير الطليان .

وفي الحرب العالمية الثانية استطاعت إيطاليا أن تحالف أعداءها في الحرب العالمية الأولى . وكان بين الشعبين الإيطالي والبريطاني صداقة ومودة قديمة ، قد توجها [illegible] في [illegible] ، ومع ذلك فإن إيطاليا قد [illegible] السابقين ، لكي تحارب أصدقاءها السابقين [illegible] عداوة أو حرب في أي وقت [illegible] أسباباً وجيهة لهذا كله .

إن إيطاليا القطر جميل ، بل لعله أجمل أقطار أوربا على الإطلاق . ولكن سكانه يعانون شدائد قاسية ، من أنواع شتى : منها الزلازل المدمرة ، ومنها البراكين الثائرة ، ومنها هؤلاء الساسة البارعون ، الذين رزقوا عقلاً فذاً عجيباً ، يستطيعون به أن يجدوا الأسباب القاهرة التي تدفع إلى الحرب ، وإلى إزهاق الأرواح التي اؤتمنوا عليها ، وكلفوا رعايتها والمحافظة عليها .

ولكن عامة الأسباب التي تدفع إلى الحرب ليست مقصورة على هذه الأمثلة الإيطالية ، بل إن تلك القاعدة موجودة في كل حالة أخرى ، وإن كانت أكثر ظهوراً في مسلك دولة إيطاليا الحديثة . . . فما أجدر دعاة السلم العالمي أن يتذكروا أن ليس وراء هذه الحروب أسباب قوية ، ودوافع ملحة ، بل نفوس امتلأت بالشهوات ، وعقول حشيت بالضلال .

محمد عوض محمد

زعماء الإصلاح الإسلامي في القرن التاسع عشر :

محمد بن عبد الوهاب

١١١٥ – ١٢٠٦ هـ

١٧٠٣ – ١٧٩١ م

لم يدرك القرن التاسع عشر ؛ إذ مات قبله بقليل ؛ ولكن تعاليمه وآثارها ظهرت ظهوراً بيناً بعد وفاته فلا نخرج إذاً عن حدودنا إن عددناه من زعماء الإصلاح في هذا القرن .

هو زعيم الفرقة التي تسمى الوهابية ، ومعتنق مذهبه الحكومة الحاضرة في الحجاز .

نشأ في بلدة تسمى « العيينة » في نجد ، وتلقى دروسه الأولى بها على رجال الدين من الحنابلة ، وسافر إلى المدينة ليتم تعلمه ، ثم طوّف في كثير من بلاد العالم الإسلامي ، فأقام نحو أربع سنين في البصرة [illegible] وسنة في كردستان ، وسنتين في [illegible] أصفهان ودرس هناك فلسفة الإشراق والتصوف ، ثم رحل إلى « قم » ، ثم عاد إلى بلده واعتكف عن الناس نحو ثمانية أشهر ، ثم خرج عليهم بدعوته الجديدة .

أهم مسألة شغلت ذهنه في دروسه ورحلاته مسألة التوحيد التي هي عماد الإسلام ، والتي تجلت في « لا إله إلا الله » ، والتي تميز الإسلام بها عما عداه ، والتي دعا إليها « محمد » (ص) أصدق دعوة وأحرّها ؛ فلا أصنام ولا أوثان ، ولا عبادة آباء وأجداد ، ولا أحبار ولا نحو ذلك . ومن أجل هذا سمى هو وأتباعه أنفسهم « الموحدين » ؛ أما اسم الوهابية فهو اسم أطلقه عليه خصومهم ، واستعمله الأوربيون ثم جرى على الألسن .

وقد رأى أثناء إقامته في الحجاز ورحلاته إلى كثير من بلاد العالم الإسلامي أن هذا التوحيد الذي هو مزية الإسلام الكبرى قد شابه ، ودخله كثير من الفساد .

فالتوحيد أساسه الاعتقاد بأن الله وحده هو خالق هذا العالم ، والمسيطر عليه ، وواضع قوانينه التي يسير عليها ، والمشرّع له ، وليس في الخلق من يشاركه في خلقه ، ولا في حكمه ، ولا من يعينه على تصريف أموره ؛ لأنه تعالى ليس في حاجة إلى عون أحد مهما كان من المقربين إليه ؛ هو الذي بيده الحكم وحده ، وهو الذي بيده النفع والضر وحده ، لا شريك له ؛ فمعنى لا إله إلا الله : ليس في الوجود ذو سلطة حقيقية تسيّر العالم وفقاً لما وضع من قوانين إلا هو ، وليس في الوجود من يستحق العبادة والتعظيم إلا هو . وهذا هو عين القرآن « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

إنه رأى أن العالم الإسلامي اليوم بعد عن هذا التوحيد [illegible] إلى الإشراك مع الله كثير [illegible] تحج إليها ، وتقدم لها النذور ، [illegible] النفع والضر ؛ وهذه الأضرحة لا عداد لها تملأ العالم في جميع أقطاره ، ويشد الناس إليها رحالهم ، ويتمسحون بها ، ويتذللون لها ، ويطلبون منها جلب الخير لهم ودفع الشر عنهم ؛ ففي كل بلدة ولي وأولياء ، وفي كل بلد ضريح وأضرحة تشرك مع الله تعالى في تصريف الأمور ودفع الأذى وجلب الخير ، كأن الله سلطان من سلاطين الدنيا الغاشمين يتقرب إليه بذوي الجاه عنده وأهل الزلفى لديه ، ويُرجون في إفساد القوانين وإبطال العدل ، وليس هذا كما كان يقول مشركو العرب « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » وقولهم « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » .

بل وأشد ، لم يكتف المسلمون بذلك بل أشركوا مع الله حتى النبات والجماد ؛ فهؤلاء أهل بلدة « منفوحة » باليمامة يعتقدون في نخلة هناك أن لها قدرة عجيبة ، من قصدها من العوانس تزوجت عامها ! وهذا الغار في الدرعية يحج

إليه الناس للتبرك ، وفي كل بلدة من البلاد الإسلامية مثل هذا ؛ ففي مصر شجرة الحنفي ، ونعل الكلشني ، وبوابة المتولي(1) ، وفي كل قطر حجر وشجر ، فكيف تخلص التوحيد مع كل هذه العقائد ؟

إنها تصد الناس عن الله الواحد ، وتشرك معه غيره ، وتسىء إلى النفوس ، وتجعلها ذليلة وضيعة مخرفة ، وتجردها من عزة التوحيد ، وتفقدها التسامي .

وأساس آخر يتصل بهذا التوحيد كان يفكر فيه «محمد بن عبد الوهاب» ، وهو أن الله وحده هو مشرّع العقائد ، وهو وحده الذي يحلل ويحرم ، فليس كلام أحد حجة في الدين إلا كلام الله وسيد المرسلين ، فالله يقول : «أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله» ؛ فكلام المتكلمين في العقائد ، وكلام الفقهاء في التحليل والتحريم ليس حجة علينا ، إنما لنا الكتاب والسنة ، وكل مستوفٍ أدوات الاجتهاد له الحق أن [illegible] عليه أن يفعل ذلك ويستخرج من [illegible] فهمه لنصوص الكتاب وما صح من السنة [illegible] إليه اجتهاده . وإقفال باب الاجتهاد كان نكبة على المسلمين ، إذ أضاع شخصيتهم وقوتهم على الفهم والحكم ، وجعلهم جامدين مقلدين يبحثون وراء جملة في كتاب أو فتوى من مقلد مثلهم ، حتى أحط شأنهم وتفرقوا أحزاباً يلعن بعضهم بعضا ، ولا منجاة من هذا الشر إلا إبطال هذا كله ، والرجوع إلى الدين في أصوله ، والاستقاء من منبعه الأول .

وهكذا شملت دعوته فكرة التوحيد في العقيدة مجردة من كل شرك ، والتوحيد في التشريع فلا مصدر له إلا الكتاب والسنة .

هذا هو أساس دعوة محمد بن عبد الوهاب ، وعلى هذا الأساس بُنيت الجزئيات .

اتفق في دعوته وتعاليمه عالماً كبيراً ظهر في القرن السابع الهجري في عهد السلطان الناصر هو «ابن تيمية» ، وهو مع أنه حنبلي فقد كان يقول بالاجتهاد ولو خالف الحنابلة ، وكان حرّ التفكير في حدود الكتاب وصحيح السنة ، ذلق اللسان ، قوي الحجة ، شجاع القلب لا يخشى أحداً إلا الله ، ولا يهاب سجن ظالم ، ولا تعذيب مرهق ، فهاجم الفقهاء والمتصوفة ، ودعا إلى عدم زيارة القبور والأضرحة وهدمها ، وألف في ذلك الرسائل الكثيرة ، ولم يعبأ إلا بما ورد في الكتاب والسنة ، وخالف إمامه أحمد ابن حنبل إذا أداه اجتهاده إلى ذلك .

ويظهر أن محمد بن عبد الوهاب عرف ابن تيمية عن طريق دراسته الحنبلية ، فأعجب به ، وعكف على كتبه [illegible] . وفي المتحف البريطاني بعض رسائل [illegible] مكتوبة بخط ابن عبد الوهاب ، فكان [illegible] وعقائده ، وثبات تفكيره ، والموحي إليه بالاجتهاد والدعوة إلى الإصلاح .

دعا فيه إلى رد البدع ، والتوجه بالعبادة والدعاء إلى الله وحده لا إلى المشايخ والأولياء والأضرحة ، ولا بوساطة توسل ولا شفاعة ، وزيارة القبور إن كانت فللعظة والاعتبار لا للتوسل والاستشفاع ، فهم لا يملكون شيئاً بجانب الله ونواميسه الثابتة التي لا تتخلف والتي نظّم الله بها كونه ؛ فالتمسح بالقبور والنذور لها والاستغاثة بها والسجود عندها شرك لا يرضاه الله ، وهو هدم للتوحيد — الذي جاء به الإسلام — من أساسه ؛ ومثل ذلك تجصيص القبور وبناء الأضرحة وتشييد الأبنية عليها وكسوتها الحرير المذهب وما إلى ذلك ، فكل هذه لا يعرفها الإسلام .

فكانت دعوة ابن عبد الوهاب حرباً على كل ما ابتدع بعد الإسلام الأول من عادات وتقاليد ، فلا اجتماع لقراءة

(1) شجرة الحنفي : شجرة كانت في جامع الحنفي يتبرك بها ، ونعل الكلشني : نعل قديمة في تكية الكلشني يزعمون أن الماء إذا شرب منها يشفي المتداوي من العشق . وبوابة المتولي مكونة بالمسامير تعلق بها الشعور والخيطان ليتذكر الولي من علقها وهكذا .

مولد ، ولا احتفال بزيارة قبور ، ولا خروج للنساء وراء الجنازة ، ولا إقامة أذكار يغنى فيها ويرقص ، ولا محمل يتبرك به ويتمسح ويُحتفل به هذا الاحتفال الضخم وهو ليس إلا أعوادا خشبية لا تضر ولا تنفع .

كل هذا مخالف للإسلام الصحيح يجب أن يزال ، ويجب أن نعود إلى الإسلام في بساطته الأولى ، وطهارته ونقائه ، ووحدانيته واتصال العبد بربه من غير واسطة ولا شريك ، فلا إله إلا الله معناها كل ذلك . والكتب المملوءة بالتوسلات كتب ضارة بالعقائد ، كدلائل الخيرات ، وما في البردة من مثل قوله :

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به
سواك عند حدوث الحادث العمم

وقوله :

إن لم تكن في معادي آخذاً بيدي
فضلا وإلا فقل يا زلة القدم

وقوله :

فإن من جودك الدنيا وضرتها
ومن علومك علم اللوح والقلم

ونحو ذلك ، أقوال فاسدة كاذبة ، فلا التجاء إلا إلى الله ، ولا اعتماد في الدنيا والآخرة إلا عليه .

لقد كان محمد بن عبد الوهاب ومن نحا نحوه يرون أن ضعف المسلمين اليوم وسقوط منزلتهم ليس له من سبب إلا العقيدة ، فقد كانت العقيدة الإسلامية في أول عهدها صافية نقية من أي شرك ، وكانت لا إله إلا الله معناها السمو بالنفس عن الأحجار والأوثان وعبادة العظماء ، وعدم خوف أحد إلا الله ، فلا خوف من الموت في سبيل الحق ، ولا خوف من استنكار المنكر والأمر بالمعروف مهما تبع ذلك من العذاب ، ولا قيمة للحياة إلا إذا بذلت في رفع لواء الحق ودفع الظلم ، وهذا هو الفرق الوحيد بين العرب في الجاهلية والعرب في الإسلام ، وبهذه العقيدة وحدها غزوا وفتحوا وحكموا . ثم ماذا ؟

ثم لم يتغير شيء إلا العقيدة ، فقد تحولوا من عز التوحيد إلى حضيض الشرك ، فتعددت آلهتهم من حجر وشجر وأعواد أخشاب وقبور أولياء ، وركنوا إلى ذلك في حياتهم العملية ؛ فالزرع ينجح لرضا ولي ويخيب لغضبه ، والبقرة تحمل إذا نذرت للسيد البدوي أو مثله ، وتموت إذا لم تنذر ، وهكذا في الأمراض والغنى والفقر ، كلها لا ترجع إلى قوانين الله الطبيعية وإنما ترجع إلى غضب الأرواح ورضاها . ومثل هذه النفوس الضعيفة التي تذل للحجر والشجر والأرواح لا تستطيع أن تقف أمام الولاة والحكام الظالمين تأمر بمعروف أو تنهاهم عن منكر ، فذلوا للحكام والأغنياء كما ذلوا للأخشاب والأحجار . وما زال كل قرن يمر تزداد معه الآلهة عددا وتزداد النفوس ذلة ، حتى وصلت الحال بالأمة الإسلامية إلى هذه سيادتها ، والهوان عزتها ، ولا يصلح آخر الإسلام إلا بما صلح به أوله ، فلا بد من العودة إلى العقيدة الإسلامية الأولى حيث التوحيد الصحيح والعزة [illegible] هدم هذه البدع والخرافات ، [illegible] الصحيح والعودة إلى التوحيد ، والله المستعان .

لم ينظر محمد بن عبد الوهاب إلى المدنية الحديثة وموقف المسلمين منها ، ولم يتجه في إصلاحه إلى الحياة المادية كما فعل معاصره محمد علي باشا ، وإنما اتجه إلى العقيدة وحدها والروح وحدها ؛ فعنده أن العقيدة والروح هما الأساس وهما القلب ، إن صلحا صلح كل شيء ، وإن فسدا فسد كل شيء ، وطبيعي أن يكون هذا هو الفرق بين رئيس الدين في نجد ورئيس الحكم في مصر .

* * *

أما بعد ، فإن التوحيد الصحيح المطلق المجرد عن شائبة كل تجسيم ، المنزه عن كل تشخيص ، الذي يصل العبد بربه من غير وساطة ولا وسيلة ، مطلب صعب لا يستطيعه إلا الخاصة أو خاصة الخاصة ، أما من عداهم فيشعرون بالتوحيد لحظات وسرعان ما ينحدرون ويشوب عقيدتهم نوع من

التشخيص ، وأسلوب من التجسيم على نحو ما ، ثم يتخذون من الصالحين و... [illegible] — كل ذلك في الجاهلية وكان ذلك في الإسلام بُعيد البعثة إلى الآن .

فالمؤرخون يروون أن أهل الطائف لما أسلموا كان لهم كنيسة على اللات فأمر النبي بهدمها فطلبوا منه أن يترك هدمها شهراً لئلا يروّعوا نساءهم وصبيانهم حتى يدخلهم الدين ، فأبى ذلك عليهم وأرسل منهم المغيرة بن شعبة وأبا سفيان بن حرب وأمرهما بهدمها .

وفي الحديث أن العرب كانت لهم في الجاهلية شجرة تسمى « ذات أنواط » كانوا يعلّقون بها سلاحهم ويعكفون حولها ويعظمونها ، فسأل بعض المسلمين رسول الله أن يجعل لهم كذلك « ذات أنواط » فنهاهم عن ذلك .

ولما جاء عمر شعر أن بعض الناس أخذ يحن إلى العادات الجاهلية القديمة ، فرآهم يأتون الشجرة التي بايع رسول الله (ص) تحتها بيعة الرضوان [illegible] فبلغ ذلك عمر فأمر بها فقطعت .

ولما رأى عمر كعب الأحبار [illegible] الصخرة عند فتح بيت المقدس ، قال له : « ضاهيت والله اليهودية يا كعب » .

وهكذا ما لبث بعض الناس حتى تراجع عن التوحيد الخالص الذي جاء به الإسلام ، لأن التحرر من المادة بكافة أشكالها ، والإفلات من قيود الحس ، والتسامي إلى الله فوق المادة وفوق الحس وفوق التشخيص يتطلب منزلة رفيعة من السمو العقلي تعجز عنه الجماهير .

وقال النبي (ص) « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك » .

ثم سرعان ما اتخذ المسلمون قبور الصالحين وغير الصالحين مساجد ، ولم يكن الصحابة الأولون يشدون الرحال إلى المشاهد ، ثم كان ذلك ، وهكذا كلما مضى زمن كثرت فيه أسباب التعظيم للقبور والأضرحة وكثير من الأشجار والأحجار .

وظهر الدعاة والمصلحون على توالي العصور يحاولون أن يردوا الناس عن هذا ويرجعوهم إلى التوحيد وحده ، وكلما دعا داع إلى ذلك عذب وأهين ورمي بالكفر والإلحاد كما فعل بابن تيمية ، فقد ألف الرسائل في هذا الموضوع وانتقد حال المسلمين في احتفالهم بالقبور ورحلتهم إليها وطوافهم بالصخرة في بيت المقدس ، ورحلتهم إلى مشهد الخليل ومساجد عسقلان ، وتعظيمهم حتى بعض آثار النصرانية ، فعذب وسجن ؛ وأتى بعده بقرون محمد بن عبد الوهاب هذا فدعا مثل هذه الدعوة فرمي بالكفر وأُمر أحد الشيوخ محمد عبده فدعا إلى العدول عن التوسل ... وزيارة القبور ، وملأ دروسه في التفسير وغيره ... بمثل هذه الدعوة ، فلقي من أهل زمنه ما لم يلق ...

... [illegible] التي دعا بها محمد بن عبد الوهاب ... وما الذي تلاها وتأثيرها ؟ هذا هو موضوع المقالة الآتية إن شاء الله .

أحمد أمين

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٤٥ عن مصر والسودان
م ٣٧ للطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العدد ١٥ مليما

كلبي

للدكتور أحمد زكي بك

لي كلب عاقل أريب:

عدت مرة إلى بيتي فأنبئت أن الكلب عض حامل البريد. فطلبت الكلب، وكان الحادث لا يزال ساخناً، حانقاً في الصدور، وهو يسمع ندائي. فلما ألمحت حضر وقد طأطأ رأسه إلى الأرض، ودلّى أذنيه، وعطف سيره فدار حولي ولم يأتني كعادته قدماً. فعلمت من كل هذا أنه يقر بأن شيئاً وقع ما كان يصح أن يقع. فقلت في نفسي فاتحة خير، ومبادرة إلى الإقرار بالذنب قلما يجدها المرء في غير الكلاب.

فقلت له:

— كيف تعض حامل البريد [illegible] كامل الطعام والعظام، وكل يجري في [illegible]

فأخذ يدور برأسه يميح به [illegible] من حرج السؤال باعتذار خفيف. ولكني أعدت السؤال في صوت الغاضب. فلما لم تعد بد من الجواب استخار الله فيما هو فيه، ثم قال:

أهذه أول مرة يحمل فيها الساعي بريد الصباح والمساء إلينا؟ فقلت: لا، فقد مضى يحمله إلينا أربع سنوات. قال: أفكنت عضضته في كل هذه السنين مرة؟ فقلت: لا علم لي بأنك عضضته. قال: فسله إذن لِمَ عضضته هذه المرة. إنك يا سيدي تعرف أن بين باب الحديقة وباب الدار عشر خطوات أو عشرين، وهذه هي التي عرفت أن الساعي يخطوها إذا هو أتى بخطاب. وفي كل مرة ما كنت أصنع سوى أن أنبح نباحاً هيناً، فيه إيذان الطرب، أعلن فيه قدومه. أما اليوم فقد أراد أن يخرق حرمة الدار! فقلت: كيف؟ قال: إني رأيت هاتين الرجلين ذواتي القبقاب الأصفر، بدل أن تذهبا من باب الحديقة إلى باب الدار في خط مستقيم، رأيتهما تجوزان باب الدار ودارتا حولها، ومشتا من بطن الحديقة إلى حيث لا أدخل وحدي غريب. عند ذلك نبحت ونبحت منذراً، فلم يسمع صاحب الرجلين لإنذاري ومشى إلى ما وراء الدار، فزاد نباحي وزاد اقترابي من ذلك القبقاب الأصفر. فلما عداني لم يكن بد إلا أن أنهش لحمه. ومنذئذ ظهرت سيدتي عند باب الدار الخلفي، فزاد ذلك حنقي على الرجل لولا تدخلها إياي. قلت: ولكنه إنما جاء إلى الباب الخلفي مبالغة في الحرص على إيصال ما يحمل من رسائل. قال: أو طمعاً لبعض ما في الحديقة من ثمر، أو طلباً لما انتثر فيها من متاع. ثم أنه ما لي ولهذا، فما للكلاب أن تتدخل في نوايا الرجال.

[illegible] هذا لا أمنع كل أحد من باب دارنا الخلفي. [illegible] القلال والخباز والمكوجي وأضرابهم [illegible] هذا الباب الخلفي. ولكنهم كذلك [illegible] الخلق. وكل هذا في مرأى [illegible] لهم حيناً إذا هم دخلوا الدار من بابها الأمامي. وهو كما يعرفهم بأشخاصهم، فإن أتوا منهم غريباً فالويل للغريب من هذا الكلب العجيب.

والبستاني بينه وبين كلبي صداقة، أقلها صداقة الجيرة. فكلاهما يمشي في الحديقة ومعاً غير بعيد. والطبع يأذن الكلب للبستاني أن يروح ويغدو فيها، ولكن الويل له إذا هو أراد أن يدخل الدار. إنه يقف داخل مصراعي بابها كليهما يتحداه أن يخطو خطوة واحدة إليها، ونسي صداقة الساعات الطويلة بين الأزهار وتحت ظلال الأشجار.

ومنذ أسابيع حضرت إلينا أضياف عدة، أربعون عدداً، جاءوا في ميعاد. فتشجعهم تماماً. فلما حضرنا لتحية الضيف الأول فالثاني فالثالث، ثم تكاثر الحاضرون، وأضاءت الأنوار في أكثر من مكان، كنت أخشى كلبي من ناحيته، وخلت أن يمنع سائر الأضياف عن الدار مشى في أذيالهم، فكلما رأى منهم أحداً يصطحبهم إليها اصطحاباً، ولما انعقد جمعهم

جعل يدور فيهم ويرفع يده ، أو يديه كلتيهما ، إلى كتفى يأبى فيه الإنسانية ، نطلب مصافحته . فكلبى عرف المصافحة . ويصافح كلما مدت له يد ، بيده ثم بتلك . فإن زدته صافح بتلك ثم بهذه ، ثم بكلتيهما معا . ولما قضى من أشواق مآربا ، ولم يجد فيهم ما يُشبع أشواقه ، خرج إلى الحديقة بالى الطريق ، وكانت أنوار الدار تكشف عن بعضه ، وتُبقى بعضه حبيسًا فى الظلام الحالك . وزاد ارتفاع الشجر فى جانبى الطريق له إظلاما ، وشجر الهادى رفيع مديد . عندئذ وجد الكلب شبحًا فى الظلام يقترب من باب الدار فأخذ ينبحه نبحًا شديدًا ، ينبح هذا الشيء الغريب عن دار أُوتى أن يحميها هذا العدد العديد من الناس . ولكنى للشخص هذا الشيء الغريب ، وشخصه فى الظلام تلك الشبية الخفيفة الريبة ، هما اللذان جعلا يبيح منا انتحرك … هرًا فى جوف الليل . لقد نسى أنه لا خوف من لص على دار وهى تزدحم بمن تزدحم .

وما كان هذا اللص غير … كراهة متوارثة لرجال الشرطة ، … البدلة البلدية التى يحملونها كالعصا — والكلب عند التحدى فى الصف — أم هى الغيرة حارس من حارس ، حارس يعمل صناعة بالقانون ، وحارس يعمل طبيعة بالسليقة .

وكلبى عالى الهمة ، وهو لا يحب طفلا أبدا . وتنظره تحسد فى مشيته المادئين هدوء الشيخوخة . ويزيد مظهر الشيخوخة فيه تدلى شدقيه الكبيرين . وهى شيخوخة جليلة قلما نجدها فى الرجال . ويأتيه الطفل ابن الأثنى عشر ، أو عشرين ، وهو لا يكاد يستقيم ، فيأخذ يعبث فى وجهه ، فيضع إصبعه فى عينه وفى أنفه ، ويدخل يده الصغيرة بين أسنانه ويشد شدقه ، وصاحبنا لا يتأفف ولا يتحرك كأنما يتلذذ بذلك ، كأنما لبعض الشيوخ أن تعبث الأطفال فى لحاهم . وقد يزيد الطفل فى عبثه كأن يشد شارب الكلب أو يشد أذنه فيؤلم ، عندئذ لا أرى الكلب يصنع إلا أن القوم عن إقعاءه ، ليُبقى قعوده فى مكان بعيد آخر . فإن أخ الطفل وراءه ترك الحجرة فلا يعود .

والعداوة بين القطط والكلاب عداوة قديمة متوارثة ، يحملها الكلب فى دمه ولو لم تكن رأت عيناه قطا قط . وكذلك هى فى القطط . ولكن فى منزلنا صداقة قل أن توجد مثلها بين الناس . تلك صداقة بين كلبنا هذا وقطتنا . فقد ولدت القطة فى الدار ، ولحقها الكلب وهى طفلة ، واشتأنت بين سمعه وبصره ، وفى ملاحظته ورعيه أحيانا . وهما يأكلان من طبق واحد عندما يتخذ موضع الطعام . وكثيرا ما كان يأكل فتأتيه القطة تشركه فى طعامه ، ويحيلها عنه ويتنحى ، كرما أو أنفة . والقطة الآن قطة كبيرة ، انقضى عنها البلوغ وفاته بعيدا ، ومع هذا تحب أن تلاعب الكلب ، وهى تنزع بالوثوب إلى وجهه تشاغله بيديها ، وهو ناظر إليها لا يكاد يلقى إليها بالا ، وقد يشيح بوجهه عنها وهو جاثم ، تارة عبثا وتارة مملالا ، ليتقى … التكريم المتعالى عن العبث .

… فى الحديقة إلى جانب كلبى ، حتى إذا هو لمح قطة أخرى على الشجر ، انطلق إليها كما ينطلق السهم ، حتى لتكاد صورة أن يقصر بطن إحداها لولا أن أسعفتها شجرة تسلقتها فى سرعة البرق وهى مذعورة جريحة . وكان منظر القطتين عجبا كلتاهما جمعهما رابطة الدم والجنس ، وهذا الكلب بينهما ، يعادى إحداهما عداوة الموت على غير سابق رؤية أو معرفة ، ويصادق الأخرى نزولا على أحكام العشرة ، ومحافظة على حرمة الدار الواحدة .

ثم إن صداقة كلبى للطفل صداقة فيها شيء من التحفظ ، على الأقل من جانبه ، أو لعله التكبر . ومع هذا فهى صداقة ليس كمثلها صداقة . وإن كان محك الصداقة الشدائد ، فاسمع هذه عن كلبى :

ركبنا السيارة ، وركبها الكلب معنا . وما كدنا نتحرك حتى انتفض الكلب من بيننا وقذف بنفسه منها مع ما فى هذا من خطر على حياته . أتدرى عن ما وقع ؟

وقع على كلب آخر كان يسرع وراءه فطفنا وكدنا نبلغه، وصرعه قبل أن يبلغه بثوان. ثم دارت بين الكلبين معركة علمتني أن الولاء أحيانا لا يكون أقوى من رشاقة القوي وصلة الدماء.

ولكني أحس مرة لا أعلو على الصبي أبدا. كنا على المائدة أمس فألقمته قطعة من اللحم لم تكن فيها الكفاية من رائحة اللحم. فلما أخليت إصبعي منها ظننا أنه قد عضها، أشاح بوجهه عنها فسقطت على البساط. فغضبت وصحت: أخرج، فخرج وانتحى من الدار مكانا قصيا. ولقد رنت فوق المائدة من الأهل من لا يريد أن يستمع لتأنيبهم وظل في ركنه قابعا. مر عليهم، فأطرق في بعد أنه فأطرق بوجهه مرة واحدة تجاه … واتخذ وجهه وعيناه لوناً وسطاً بين الغضب والأسف. فما قبلته بلمسة الكلاب … على طلبات، زأط وتمط وأراد أن يتحرق بالفاف … فألقمته اللقمة بعد أن ذهب من شحمها ما كان … ألا تعيرات شحم أو لحم، امتحانا …

لقد نشأنا، ونشأ أكثر … الكلاب، فقدنا صحبة من أصدق … آدم على ظهر هذه الأرض، وفقدنا صحبة قبيل من خلق الله كان يأنس به أنبياء الله. ألم يكونوا رعاة؟ وما الراعي إلا كلب يحنو عليه غنمه ويؤنس وحشته في الساعات الطويلة التي يقضيها في الحقول المنبسطة أو الوديان والجبال القارية الخالية إلا من خضرة أعشاب وخرير أمواه، وإلا من ثغاء أغنام ونباح كلاب.

لقد صغرنا آداب الكلاب، فأصبح الصبي في الأحياء المحافظة لا يلحق الكلب إلا بحجر أو عصا! وتعود الكلب ألا يلقى صاحب الحجر والعصا إلا بنهشة أو عضة. وظل سوء التفاهم هذا قائماً بين رجال الله وكلاب الله، وهو ككل سوء تفاهم يقوم على الجهالة من ناحية أو ناحيتين، فتضيع الثقة في إحدى الناحيتين أو في كلتيهما.

إن طعام الكلب العظام، ولقد صنعوا هذا إلى تلك الصحبة القديمة التي هي أقدم من الأهرامات، وأقدم من تقسّم اللحمة البشرية أطلالا وفتاتا … فتركوها تلك الصحبة القديمة يوم كان رزق الرجل من صيد الوحش في الأدغال. فكان يعينه الكلب على الصيد، فيأكل الرجل والرجال اللحم، ويأكل الكلب والكلاب ما تخلف من عظام. وكانت تتركها أضراسها القوية لطرفين فكانت ما رأيت السنون، وقالوا ما تلك الصحبة القائمة الحاضرة إلا أثر من تلك الصحبة القديمة الغابرة.

والصحبة الحاضرة قائمة على النفع كذلك وإن تغيرت الأوضاع. فصاحب الكلب اليوم لا يخلف لكلبه العظم مما يصطاد من الوحش، ولكن مما يشتري لنفسه من الأسواق. والكلب لا يعينه على صيد، وإنما يحرس داره ومتاعه من ساكن ومتحرك، وأوفى وأرخص ما يشبهه الأجراء من الآدميين. فالحارس الآدمي ينام، والحارس الآدمي ينام ويغلب … أنه … ما يكون … خرابها. أما الكلب فلا ينام … الأصوات مما لا تدركه الأذن … إليه. وهو لا يكذب لأجل … وهو لا يسرق من … والحارس من الرجلين تعطيه أجرا ثلاثة جنيهات أو أربعة، والحارس ذو الأربع لا يتقاضاك غير المطعمين والعلاوات.

وعلى ذكر السرقة أذكر أن كلبنا له ولع كبير بالكعك والفطائر، ورأيته الأحداث فيدور حول الكعك وهو مكشوف أمامه، وقريب من جده وفمه، ولكنه لا يقربه أبدا. وظل يجري بين الكعك وبيننا رائحا غاديا، ولو كان الكعك في غير حجرتنا، ولكنه يتعفف أن ينال ما لا يؤذن به، وربما تعسه أن يكون لصا.

إلا مرة واحدة، فقد أنسانا في طلبه ساعات طويلة، وفرغ الكعك أو كاد، ونسيناه وراء الصيوف. فلما عرف حسه الفطري العجيب أن بقية الكعك لا بد مرفوعة، وكان الإغراء له شديدا، تلصص إلى الأطباق وأخذ ينظر لها وإلينا، ثم هجم عليها في لمحة البصر، وأخذ كعكة وأسلم أرجله للريح ولم ينتفع فيه دعاء.

أحمد زكي

معجم القرآن الكريم

ليس في العربية كتاب عكف العرب والمسلمون على درسه وشرحه وتفسيره، كالقرآن الكريم. فمنذ أربعة عشر قرناً وهو موضع دراسات واسعة متنوعة لا تكاد تنقطع في عام من الأعوام. ومع ذلك فقد أغفل الدارسون والمؤلفون جانباً يعد إغفاله — في نظرنا — من أعجب الأمور، ذلك هو وضع معجم يشرح جميع ما يرد في القرآن الكريم من علم وزهر ونبت وشجر ولباس وآلة موسيقية ومدن ورجال وقبائل وأنبياء وقصص، وما إلى ذلك مما عز على القارئ دون أن يقف على كنهه أو يستقصي أصله وتاريخه. فإذا قرأ "اليم" (سورة طه الآية ٧٨) فلا يقنع بقول الشراح إنهما الزعفران والعنبر السماوي، بل يطلب المزيد من المعرفة حتى يصل إلى وصفها وصفاً يتوخى الدقة والحصر، وإذا قرأ (سورة الواقعة الآية ٢٧، ٢٨) لم يكتف بقول الشراح إنهما شجرا النبق والموز، وإذا رأى "الإستبرق" (سورة الكهف الآية ٣٠، والدخان الآية ٥٣، والرحمن الآية ٥٤، والدهر الآية ٢١) التمس مواطن وروده، ووقف على وصفه، وتتبع أصل اللفظة ومنشأها. وقل مثل ذلك فيما يرد من أسماء أعلام وأماكن، وإشارات إلى قصص وأخبار وما إلى ذلك.

هذا المعجم لا يستغني عنه قارئ القرآن الكريم سواء أكان مسلماً أم غير مسلم، طالب هداية وبركة أم طالب علم وتحقيق، وهو في نفسه يؤدي فائدة مزدوجة: فمن جهة يعين على التوضيح والفهم الصحيح، ومن جهة أخرى يؤدي إلى دراسة طريفة في تاريخ العرب الثقافي والاجتماعي والأدبي زمن الرسول عليه السلام وقبيل الإسلام، كما يؤدي إلى مقابلات بين ثقافات الأمم الأخرى المعاصرة للأمة العربية.

وليس من شك في أن القرآن الكريم أصبح المصدر الصادق لجميع العناصر الأولية التي تؤلف كيان الحياة الجاهلية والإسلامية، ذلك الكيان الذي نعتمد في إدراكه على الخيال أو ما يشبه الخيال.

وأمامي الآن مباحث جزئية تتناول شطراً يسيراً من هذه الدراسة الواسعة: منها ما يتناول أسماء الطيور الواردة في القرآن الكريم، ومنها ما يتناول أسماء الحيوانات، ومنها ما يتناول أسماء الآلات الموسيقية، ومنها ما يتناول النباتات والأزهار، وهي مباحث أولية يقصد منها الاطلاع الفردي، إذ أن مثل هذه المباحث يجب أن يتفرغ لها عدد كبير من العلماء المتبحرين في علومهم.

بيد أن ما أود أن أشير إليه هنا أن هذه المباحث تؤكد النظرية العامة التي لم يرتب في صحتها باحث قط، وهي سلامة القرآن الكريم سلامة كلية من أي ريبة أو تحريف أو عبث ما. فقد رأيت بعض الباحثين الأوربيين يتخذون من ترتيب سور القرآن الكريم على النحو الذي هو عليه متناقضاً دليلاً على تحريفه. وأظن أن إيراد الأدلة المختلفة المنتزعة من القرآن الكريم نفسه للتدليل على هذه الصحة مذهب قويم سليم، وإن لم نقل إنه أقوم وأسلم مذهب.

* * *

لا ريب في أن دراسة القرآن الكريم على هذا النهج أمر جليل الفوائد. والواقع أنه يبدو غريباً غاية الغرابة أن يغفل المسلمون في تاريخهم الطويل عن الاضطلاع بها. وأغلب الظن أنهم لم يغفلوا، ولكنهم ضمنوا الشروح التي اقتضتها تفاسيرهم الواسعة دون تقيد بتبويب أو ترتيب خاص على النحو الذي أشرت إليه.

وقد أخبرني أحد طلابنا النابهين أنه قرأ في مصدر لم يذكره، أن أحد ملوك السلاجقة جمع علماء عصره من فقهاء ولغويين ومؤرخين وفلاسفة وأطباء وجغرافيين ومن شاكلهم، ووكل إليهم أن يفسروا القرآن تفسيراً شاملاً

لجميع العلوم والفنون ، كلٌّ حسب اختصاصه : فالفقيه يشرحه من ناحية الفقه ، والنحوي من ناحية النحو ، والطرائقيّ يشرح ما ورد من أسماء الحيوان ، والنباتي يشرح أسماء النباتات .. فانقطعوا لهذا العمل ، وجاء تفسيرهم في مجلدات كثيرة يتطلب نسخها عشرات السنين . فهذه الرواية — إن صحت — تثبت أن القدماء أدركوا ما لهذه الموسوعة الوافية العميقة من شأن ، ولكنهم حققوها على وجه لا نعرف — والمقياس — حسبه شيئاً حتى نحكم أيطابق ما قصده أم يخالفه . ولكننا نتصور ، على كل حال ، أن العصر الحديث يتذرع بوسائل شتى لم تكن مألوفة في العصور الماضية لتبيان المادة المعروضة وتحديدها، وأقرب ما يصح أن نذكر هنا التصوير والرسم ، والذي أوضح في شرح اسم لباس أو طير أو نبات من عرض صورة ، وتغني الصورة أو الرسم عن الحل المبهم أو التعريفات « التقليدية » التي قد تزيد في الإبهام .

* * *

ومن أمثلتنا — حسن الحظ — [illegible]
النوع في غاية الدقة والتفصيل تتناول الكتاب المقدس : فقد وضع العلماء الأوربيون مؤلفات بعضها في مجلد ، وبعضها في عدة مجلدات ، مرتبةً حسب الأبجدية ، أعمها جميعاً معجم الكتاب المقدس ؛ أذكر منها على سبيل المثال : (١) Dictionnaire De La Bible لمؤلفه F. Vigouroux الذي طبع سنة ١٨٩٦ ، وذيله المسمى Supplément du Dictionaire De Le Bible في جزءين طبعا سنة ١٩٢٨ ، (٢) A Dictionary of the Bible(*) لمحرره James Hastings ومساعدة أربعة من العلماء ، وقد صدر في أربعة مجلدات وملحق : صدر المجلد الأول سنة ١٨٩٨ ، والثاني سنة ١٨٩٩ ، والثالث سنة ١٩٠٠ ، والرابع سنة ١٩٠٢ ، والملحق سنة ١٩٠٨ . واحتوت

(*) Dealing with its Language, Literature, and Contents including The Biblical Theology.

هذه المجلدات على مقالات في أسماء الأعلام والأماكن والآثار والحفريات وعلم سلالات البشر Ethnology وطبقات الأرض والتاريخ الطبيعي ، وفقه الكتاب المقدس Bible Theology وعلم الأخلاق Ethics الخ ... وفي المشكلات الإثنا عشرة في الترجمة الإنجليزية وفي الموضوعات المهمة والصعبة . واشترك في تحرير هذا المعجم عدد كبير من العلماء تناول كلٌّ منهم الموضوع الذي تخصص في درسه وأحاط به إحاطة جيدة ، مذيلاً موضوعه باسمه لضمان الأمانة العلمية ؛ ثم راجع المحرر ومساعدوه وهيئة من العلماء تلك الموضوعات وأقروها . (٣) وصدر من جامعة شيكاغو عام ١٩٠٨ Old Testament and Semitic Studies في مجلدين ألفه ثلاثة من العلماء . (٤) وصدر [illegible] The Temple Dictionary of The Bible(*) في مجلد واحد ليكون في متناول عامة القراء . وقد عاون [illegible] W. Ewing و J. T. Thomson على غرار المعاجم السابقة [illegible] العلماء المتخصصين في كتابة [illegible] المراجعة . بيد أن هذا المعجم يمتاز بميزتين : الأولى أنه استفاد من الأبحاث والاكتشافات التي حدثت في مصر وفلسطين ، وخاصة ما وصلت إليه بعثات الآثار في فلسطين من معلومات جديدة ؛ والثانية أنه تجنب المسائل النظرية والجدلية واقتصر على المعلومات منها . (٥) وصدر في العربية كتاب « مرشد الطالبين إلى الكتاب المقدس الثمين » سنة ١٨٦٨ في مدرسة العلوم الأميركانية في عبيه (لبنان) في ثلاثة أجزاء ، مجموعةً في مجلد واحد : يبحث الجزء الأول منها في وصف الكتاب المقدس والقوانين المفيدة لقراءته ، والثاني يفصّل أسفار العهدين القديم والجديد ، والثالث يوضح أموراً متنوعة مذكورة في الكتاب المقدس أو لها علاقة به من جهة ما .

(*) Deals with Biblical Antiquities, Biography, History, Literature, Manners and Customs, natural History, geography, and Topography.

يا من يدلني على الطريق!

قرأت وأنا طالب أدرس الفلسفة ، أن أفلاطون تخيل أطفالاً وضعوا في غار ، وسلسلوا بالسلاسل والأغلال كيلا يتحركوا ، وجعلت وجوههم تلقاء الجبل ، وظهورهم إلى الطريق ، ونشأوا على ذلك ، فكانوا يسمعون وقع خطى الأرجل وأصوات الناس في أحاديثهم ، ويرون ظلالهم على جدار الغار ، فيحسبون أن الظلال هي التي تتكلم ، وأن الدنيا هي هذا الغار ، ولا يتصورون أن الظلال حقائق ، وأن وراء الغار عالماً واسعاً ، وأن فيه نور الشمس وضياء القمر وزهر الربيع — وقال إننا في دنيانا كأولئك الأطفال ، لا ندري أن كل ما نرى ظلال لحقائق كبرى هي عالم المثل العليا (Les Idées) وأن النفس قبل أن تسجن في الجسد كانت تعيش فيه حرة طليقة عالمة ، وأن كل ما تدركه إنما هو تذكر ومراجعة ....

وما أدري ، أحسنت التلخيص والنقل ، أم أنساني بعد العهد وطول المدى حقيقة المسألة ، ولكني أدري أني اقتنعت بهذه « النظرية » منذ قرأتها ، وخالطت فكري وحسي ، ووافقت ما كنت أشعر به ولا أملك البيان عنه ؛ إذ كنت أحس من صغرى أني أعيش في مجال ضيق ، وأن قلبي في ظلمة ، وأن في نفسي فراغاً لا أدري كيف أملؤه ، وأني لا أشعر بالنور والسعة إلا في لحظات سريعة أكون مستغرقاً فيها في عبادة ومناجاة ، أو في عاطفة وحب ، أو في تأمل وخيال . ولازمني هذا الحس الغريب طول حياتي ، فحبب إليّ الألم ، الألم العاطفي النفسي الذي أحبه الشعراء ، وهتف له « موسيه » ... ووصفوا له بالأشعار البارعة ، ووصفوا له بالأماني اللذيذة ... من (عالم المثل) ويسمو بهم عن المادة

ومن أطرف ما في هذا الجزء الخامس ... والسابع عشر اللذان يتناولان الآلات الموسيقية والأزياء والنقود والمكاييل والقياسات التي وردت في الكتاب المقدس .

والكتاب مفيد ، ولكنه دون ما صدر باللغات الأوربية حجماً ونوعاً وترتيباً .

وتلك هذه المجلات التي تصدر في مختلف اللغات الأوربية قاصرة على دراسة الكتاب المقدس وجميع المباحث التي تتصل به ، وتفصل هذه المجلات في عرض المشاكل على ضوء ما يجد في كل وقت من اكتشافات ومباحث ؛ ومن أشهرها La Revue Biblique التي يحررها منذ خمسين عاماً الآباء الدومنيكيون القائمون على « المعهد الكتابي والأثري الفرنسي في القدس الشريف » .

* * *

وإذا أضفنا إلى هذه المعاجم والمجلات التي تنتفع من مادتها وأسلوبها أيما انتفاع ، ما جمعه مفسرو القرآن الكريم — لاسيما المتقدمين منهم — من معلومات ... دراسة ... ثمينة ، تبين أن « المعجم ... القرآني ... كثير من الصعاب ، وأضحى البناء ميسوراً ... على منوال سابق مألوف .

ولكن هناك أمراً واحداً لا يصح أن يغرب عن البال ، وهو أن هذا المعجم يتطلب دراسات واسعة ، بل أوسع مما يتصور لأول وهلة ، يضطلع بها عدد كبير من العلماء ذوي التخصص والجلد والروح العلمية ، مدة ليست بالقصيرة ، تحت إشراف هيئة علمية . ولا شك في أن جزءاً كبيراً من هذه الدراسات يجب أن يتم في موطن الوحي نفسه .

فهل يظفر القرآن الكريم بهذا المعجم ؟ إن ظفر فإنها لنهضة خالدة بأن تشد إليها الرحال ، وتبذل في سبيلها الأعمار والأموال ، ويتعاون عليها الأفراد والجماعات ، وإن لم يظفر فلتحفظ هذه الأمنية الغالية في صدورنا إلى أن يشاء الله ...

(القدس) محمد موسى الحسيني

الصبا الكاذبة ، كما حبب إليّ الطبيعة والفضائل ، وحمل النقد البالغ والهجاء الساحق والإنكار والإهمال ، كسبني قوة وشد أعصابي ، وبصرني بازدراء هذه الدنيا والتلذذ من عالي الفتوة . ولقد سحت في البلاد ، ولقيت الرجال ، وشهدت أفراحاً ورأيت مآسي ، ونلت نجاحاً ولمست الخيبة ، وذقت الفقر ، وكدت أتذوق الغنى ، وأحببت وأبغضت ، وكان لي أصدقاء ، وكان لي أعداء ، وعرفت كل ما في الحياة من ألوان وصور ، فما ازداد قلبي إلا شعوراً بالضيق والظلام ، إنه لم ير النور إلا لمحات خاطفة ، فتارة تشرق عليه نور الإيمان (١) وأخرى يخطف فيه سنا الحب ، وحيناً يومض فيه ضوء المجهول يتطلع إليه أو التأمل يستغرق فيه ، فهنالك ينعم هذا القلب اللذة ، لذة لا تدوم ...

وطالما رأيت بصيصاً يلوح لي من بين ستائر الماضي ، فقمت أسعى وراءه بخيالي وأنقب [illegible] فتشت خلال الماضي ونبشت ركامه [illegible] وكم صورت الليالي أحييه بأنفسي [illegible] أعماقه ، فيلبسني ويحملني إلى يد الذكرى أجمل أزاهيره ، وأبهى أوراده ، فإذا لمستها وهممت بشمها تساقطت أوراقها واستحالت من الهشيم هباء ، فلا يبقى في يدي منها شيء .

وما أنس ما فني العصور والعواطف ، وإن كانت أيامه قصاراً ، إني لأفكر فيه أحياناً وأعرض صوره ، فتثور في الأرض من كثرتها وازدحامها وتفرقها في البلدان ، ولا أستطيع أن أثبتها . خمس عشرة سنة كاملات وأنا أذرع الأرض في طلب المال والمجد ، ثم رجعت وما في يدي من المال ، وما ثبت من المجد إلا الأوهام ، وكل ما رجعت به الذكريات . لقد كنت أعرض الحب حيثما حللت ، وأدع كلما أصبت قطعة من قلبي : في الشاذروان والمزة من (دمشق) ، وبين الأشرفية والحرش من (بيروت) ، وفي الأعظمية والكرخ من (بغداد) ، وفي الجزيرة والروضة من (مصر) ، وبين الأبلة والشط من (البصرة) ، وفي السهل الأفيح من (تسالية) وعند كنيسة (الدير) وحيال (كركوك) وبين زمزم والحطيم ، وفي الروضة المباركة وعند القبر الأنور ، فلذات من هذا القلب المسكين ... ولو ذهبت أعرض دقائق صور الماضي لزاغ بصري من طول التحديق ، وسال الفؤاد من العينين رقة وشوقاً إلى صحبي في تلك البقاع وخلاني ، وإلى تلك الديار التي كانت لي وطناً ، وكل دار فيها الآن وطني وأهلها أهلي .

كم شاقني هذا الماضي ، وكم ساهرته وسامرته ، وكم [illegible] التي فقدتها ، وكم بحثت لأفراحه التي زالت عني ، [illegible] أني لم أجد النور الذي أبغي ، ووجدتني لم أستطع [illegible] أمراً ملموساً ، فأنى لي المتعة به [illegible] عن الخاطر ؟!

[illegible] الظلام المر وضيقه وصلاصله .

ثم رأيت نوراً يومض من بين سجف الآتي وأستاره ، فهرعت إليه أمزق السجف مخال أنه المستقبل وأناديه ، وأقوم على رؤوس السني أطاوله وأناجيه ، وهو لا يجيب ، وجعلت المستقبل أكبر همي ، أتطلع إليه أرجوه وأخافه ؛ فلما كنت تلميذاً كان المستقبل كامناً وراء الشهادة يبسم لي من ثناياها كاللؤلؤ الرطب يستهويني ويستمليني فأسمو إليه وأميل ، فلما أخذت الشهادة فر مني فاختبأ وراء الوظيفة ، فلما نلتها هرب فتوارى وراء الشهرة ، فلما دنت منها ضاع مني فلم أعد أراه أبداً ...

كذا فرّ مني هذا المستقبل ، فإن سعدت لم ألتذ بسعادة خوف فقدها فيه ، وإن نلت نعمة لم أنعم بها خشية ألا تدوم ، ووجدتني كلما قبضت عليه استحال في يدي حاضراً مقيماً ، ولم يبق ذلك « المستقبل » المرجو المرتقب ، فكأنه الرغيف الذي زعموا أن ساحراً نفث فيه ، فكلما

(١) والإيمان مالئ قلبي ولكن قد يحجب عني نوره وتخفى عني حلاوته .

رقعة الأمل التي فيه صار حشفة يابسة ، وإن ذكره عاد رعيقاً ، تزعمت في المستقبل ، وحيا في عيني نوره .

* * *

وطالما لاح لي النور في أغنية نائية من « عذارى » لبنان ، تحملها أجنحة الليل فتجوز بها على ذراه العالية فتقبس من سموها وجلالها ، وتهبط بها أوديته العميقة الملتوية ، فتأخذ من خشوعها وسحرها ، وتسلك بها طرقه الضائعة خلال الأودية والشعاب ، وقراه المبعثرة النائمة بين تلك السفوح المخضرة والسحاب ، فأرى في هذه الأغاني لمحة من العالم المجهول ، ولكن كما يرى الناظر إلى لمحة في سواد الليل إذا لمع البرق ثم اختفى .

وطالما لاح لي الوميض في القصة الممتعة التي تطرق باب « المجهول » ، وفي القصيدة التي كتبها الشاعر بمداد قلبه ، والبحث الذي وضع فيه العالم عصارة عقله ، فأكون مع الكاتب والشاعر والعالم [illegible] الذي وصف وتخيل ، ثم تنتهي القصة ، وتنقضي القصيدة ، ويختم البحث ، فأعود إلى ظلام الدار وسلاسله .

فتركت ذلك كله ، وانغمست في غمار الحياة ، أسبح فيه وأقرع بالأيدي وبالأرجل ، وأزاحم وألاطم ، لعل الضجة تحجب عني أنين صوت نفسي التي تطلب عالمها ، فغامرت في سياسة الأحزاب ، وجردت قلمي ولساني ، حتى قالوا له قلم كالسيف البتار ، ولسان كالسنان الماضي ، وكم من قلم رفعته إلى السماك ، وكم من علم هبط به إلى الحضيض . وأصبحت وأمسيت ، ووقفت وخلفت ، وكنت أنظر إلى نفسي بعد الخطبة التي لعبت فيها بالقلوب ، وصفقت لي فيها الأكف ، فأجد نفسي فارغة لم يملأها شيء من تلك الأوهام ، فعطلت أحاسيسي حتى عادت رماداً .

وانقلبت إلى الخيال فذهبت أطلب الرؤية وأسعى إليها ، فهبطت مدائن لا أعرف فيها أحداً ، وزرت قرىً في مجاهل ماوراء بابها من يعرفني أو يهتم بي أو يسائلني ، آملاً أن يشع في اليأس من الناس وقالتهم ثم عانى القيود ، فما وجدت إلا الشكاية والملل ، وما أحسست إلا ظلمة (الدار) وثقل قيوده ، أفما لهذا الليل من آخر ؟ أما لعالم النور من طريق ؟

* * *

ألا يا من عرفتم الطريق دلوا عليه التائهين ، الآملين بدخول عالم المثل الأفلاطونية مدوا أيديكم للضالين إليه ....

أين الباقون ؟ أين الصوفية الذين سموا أنفسهم مشايخ الطريق وعلموا الهداية ومدارج الشرع وإشارات رسول الله ، ووضعوا للسالكين العلامات والصوى ، وقسموا الطريق إلى مراحل ومحطات ، وزهدوا في الدنيا [illegible] وخشوا فيها الناس ، وعافوا لذائذها الفانية لأنهم [illegible] الباقية ، وهربوا من الناس كيلا يكدروا [illegible] لحقوا بهم [illegible] إلى [illegible] وعطاء ، أين أنتم ؟ هذا [illegible] الجنة إليكم ! دلوني على الطريق فقد طالت حيرتي ! أروني النور فقد اشتد عليّ الظلام ! أخرجوني من ضيق الدار وثقل السلاسل والقيود إلى سعة العالم ونعمة الانطلاق ... وأين من يعرف الطريق ، أين ؟؟

علي الطنطاوي

أدب النهضة ...

كان الأسبوع الماضي عيداً من أعياد مصر الحديثة ؛ شارك في الاحتفال به طائفة من أمم الشرق والغرب جميعاً ؛ وكان «العيد الفضي» للنهضة فرصة سعيدة لتوازن مصر بين ماضيها وحاضرها ، وتتحدث من ذكريات ذلك الماضي وحقيقة هذا الحاضر فتنة للعقل المتأمل ...

وقد قرأتُ وسمعت وشهدت أكثر ما جرى من احتفالات الجيش والطوائف بهذا العيد ، وقد تناول حديث خطبائها وكتابها كل مظهر من مظاهر هذه النهضة ، وكل أثر من آثارها في حياة مصر الناهضة ؛ حتى ليمكن أن يقال إن حديث الخطباء والكتاب في هذه المناسبة يعد في جملته أعظم سجل أرَّخ لهذه الحقبة من تاريخ مصر ؛ ولكني شاء لي ما أعرف من تتبعي ما كان [illegible] فيه أثر أي أثر ، لم يعرض له [illegible] واحد من كتاب هذا العيد وخطبائه [illegible] الأدب ، وما يتصل بذلك من ذكريات [illegible] كان حقيقاً بالتنويه والتسجيل ، ليكون تحت يد مؤرخي الآداب في هذا الجيل مصدراً من مصادر البحث والاستنباط .

فمتى يذكر أين حال الأدب المصري اليوم مما كان منذ ربع قرن ، ثم يذكر أثر النهضة السياسية في هذا التطور المبين الذي ناله جملة وتفصيلا ؟

أما أنا فلم أشهد فجر هذه النهضة بعيني مبصر ؛ وإن كان كثير من ذكرياتها لم يزل ماثلاً أمامي في صور غامضة تتذبذب وراء الظلال من أحداث الطفولة ورسوم الماضي ؛ ولكني مع ذلك أطمع أن يكون لي من الحديث ما يغني شيئاً ما في هذا الباب ، ولكنه ليس كل ما يطلب أن يقال في هذا الباب .

... لقد سمعتُ سعداً يخطب ، وسمعت أبا شادي ، والقاياتي ، وفلاناً ، وفلاناً من خطباء النهضة وقادة الجماهير ؛ وقرأتُ كثيراً من المساجلات السياسية في صحف ذلك العهد ، بين عبد القادر حمزة ، وحافظ عوض ، وأمين الرافعي ، وطه حسين ، ومحمود عزمي ، وتوفيق دياب ، والمازني ، وهيكل ، والعقاد ؛ وشهدتُ في كثير من الرحلات الانتخابية بين طنطا ، وزفتى ، وكفر الشيخ ، والمحلة الكبرى ، ودسوق ، وغيرها ، واستمعت إلى إسماعيل صدقي يخطب منافساً نجيب الغرابلي ؛ ثم إلى عبد المجيد سعيد منافسه فلان ؛ وشهدت في هذه المعارك الانتخابية مجلس نواب الأمس ، وندوة أحمد الشيخ ؛ وقرأت عشرات الآلاف من المنشورات الانتخابية والسياسية التي كانت تُطبع وتوزع في النور أو في الظلام ؛ قرأت ذلك [illegible] وشهدته ، في هذه الفترة من تاريخ مصر [illegible] فأين أثر ذلك كله في أدب الجيل ؛ وأين [illegible] التي أثمر عنها المناسبة في «عيد [illegible] من ذكرياته ومن مشاهداته [illegible] هذا الصراع ، أو يربط بين الأسباب والمسببات ، ويبين المقدمات والنتائج في بحث وازن فيه بين حالي الأدب في حاضره وفي ماضيه ؟ ...

... إن طائفة من القراء ليرونني كاتباً ؛ فهل يعلمون أين بدأتُ ؟ ... إني لأذكر ذلك ، وكنت يومئذ فتى لم يبلغ حد الشباب ؛ وكانت الشوارع في طنطا مقفرة إلا من الجند والحراب ، وحاصدات الأرواح منصوبة على أفواه الطرق .... ولم تكن ثمة معاهد قائمة أو مدارس مفتوحة ، وقد حرّم عليّ أبي الشيخ أن أغادر الدار خشية عليّ من أذى الطريق ... وكان بي شوق إلى أن أرى وأعرف ما وراء هذه الجدران الأربعة التي تحتجزني خلفها أنا ، وأن أشهد بعيني شيئاً من تلك الأحداث التي تجري تحت السمع ، وتتلقفه آذاننا مقتضبة أو مزيدة من أفواه الضيوف الذين يفدون إلى الدار ... ؛

وكان أشد ما يشوقني ، أن أعرف شيئاً من أخبار صديقي « أبي ثورة » الذي استودعني حقيبة كتبه ذات صباح وراح يصيح مع الصائحين في مظاهرة عنيفة ثم لم يعد إليّ بعد ، وانقطعت عني أخباره منذ اليوم ، لأني منذ اليوم لم أغادر الدار ......

أكانت لهفتي إلى لقائه حرصاً على أداء الأمانة التي استودعني إياها في ذلك اليوم ، أم شوقاً إلى ما وراء الجدران من أخبار الدنيا ؟.. لست أدري ؛ وطال حبسي عن صديقي أسابيع ، كنت أسمع فيها ما أسمع ، وأتخيل ما لا أسمع ، وأتوهم الممكن وغير الممكن ، وأقرأ شيئاً من جرائد ذلك العهد ... ثم جاءني نبأ صديقي : لقد جندله الجند في ذلك اليوم الذي كنت وكان ؛ ثم [illegible] ولم يوص وصية لما خلفني من وديعته !

ووزعني النبأ وأنكره حسي ، و[illegible] إلى الأمانة ، ولكني حرصت [illegible] لا يتهمني أحد من أهلي بأني كنت [illegible] شهداء الثورة فاشتد حبسي والتضييق عليّ ... والتمست فرصة فتسللت في الظلام لا أبالي الأمر العسكري الذي يمنع التجوال في الليل ، ولا أمر أبي وأمي ... وكان تحت إبطي حقيبة ؛ ومضيت أتحسس الجدران حتى بلغت دار « أبي ثورة » ووقفت برهة لا أجد في نفسي شيئاً من الشجاعة ؛ ونبهني منظر الدار الحزينة إلى نفسي فمددت ذراعي لم يشعر بي أحد هنا ولا أحد هناك ؛ وكان يصحبني في الطريق المظلم شبح لا أراه العين ، يتحدث إليّ وأتحدث إليه وأسأله عن أمسه ويجيبني ؛ فكأنما شهدت بعيني مصرع صديقي ... فعدت وفي نفسي ثورة ... أنحى ثورة كانت .... !

ولما هدأ الصوت ونام كل من في الدار ، مضيت أتلمس الخطا إلى غرفة بعيدة عن النوام لأوقد مصباحي وأبسط بين يديّ ورقات أصنع فيها شعراً في رثاء صديقي « ... » وأحاول أن أشعل ثورة لأنتقم له ... ورأيتني منذ ذلك اليوم شاعراً يخيل إليه أنه مستطيع أن يقود بشعره أمة إلى مخاضة الموت ....

فإذا أسفر الصبح كنت على الطريق إلى « المسجد الأحمدي » حيث كان يعقد في كل يوم اجتماع عام ، وحيث يتبارى الخطباء والشعراء من الشيوخ والشبان ......

وكانت أمنيتي أن يتاح لي أن أخطب ثمة وأنشد الجمهور من شعري ؛ فقد كنت على يقين أني أستطيع أن أثير به من عواطف السامعين ثورة لم يبلغ مثلها من نفوسهم خطيب أو شاعر قبلها ؛ وكنت أظن يوم حين يسمعون قولي :

« يا أبا ثورة ! يا أبا ثورة !
في ذمة الله يا صديق الشهيد ! »
إلى آخر ما [illegible] من لغو وتخليط !

ومضيت أيامي في المسجد أنتظر احتشاد الناس [illegible] الاجتماع في كل يوم قبيل [illegible] وأتخيل لي أن أصعد المنبر في طبقات القصر والأبصار شاخصة إليّ ، وكان هذا منظراً مألوفاً ، فكثيراً ما كان يتاح للأطفال ثمة أن يصعدوا هذا المنبر ليقولوا كلاماً أعده لهم آباؤهم ... ، وهتفت أول ما صعدت المنبر : « يا أبا ثورة ! ... » وإذا يد قوية تجذبني من كتفي لترد إليّ في الصوت وصداه ؛ كانت يد رجل من أهلي الذين تفرقوا في كل وجه من المدينة يبحثون عني ... ، ولم يسمع الجمهور شعري ، ولكن ذلك لم يمنعني أن أكون شاعراً منذ ذلك اليوم ... ولما مضت الرسائل تخطب بعد أشهر من ذلك اليوم ، أو لعله بعد سنين ، حُبّب إليّ أن أكون خطيباً ، فكنته ، أو هكذا خُيّل إليّ ؛ ثم صرت كاتباً بعد ، أكتب المنشورات الثائرة ليطبعها زملائي الطلاب الكبار سراً فيذيعوها في الناس ، ومضت سنوات وأنا لا أكاد أجد

في مجلاتي الأدب إلا كتابة المنشورات، حتى صار لي في ذلك شهرة بلغت أبويّ وآذان الكبار فركبوا إليّ...

... ولما سمعتُ لأول مرة نشيد «اسلمي يا مصر إنني الفدا...» انصرفتُ حيناً عن تحرير المنشورات وتحضير الخطب إلى محاولة الأناشيد...

وكان كل خطباء الثورة في ذلك الوقت وما تلاه يرتجلون، فما ترى منهم أحداً تحت عينيه ورقة وهو يخطب، ولم ينقل في موقفه ساعة أو ساعات لا يتوقف ولا يتلعثم ولا يعود إلى معنى سبق... فلما تطورت النهضة من ثورة دامية إلى تدبير وسياسة، قل المرتجلون من الخطباء فلا ظاهرة. وألف الناس أن يروا الخطيب وفي يده ورقة، وكانت هذه من قبلُ عيباً يعاب وسبة تشين... ثم توارى المرتجلون من بين إلا خطباء المقالات المكتوبة...

هذه ذكريات من ذكريات النهضة، لا أحصي بها كل ما كان، ولا كل ما أعرف؛ [illegible] المؤثرات السياسية التي نامت النهضة في أدب هذا الجيل فمن ذا أشار إليها أو تناولها راوياً أو باحثاً منذ بدأت هذه النهضة؟

من ذا الذي قرأ مساجلات كتاب السياسة، والبلاغ، والأخبار، والأهالي، والعروبة، والأفكار، وما لا أكاد أذكر من الصحف والمجلات — من ذا الذي قرأ مساجلات هؤلاء الكتاب السياسية والحزبية وحلل آثارها في أساليب النقد الأدبي وطبّق ما فيها من ألوان العنف واللين، والصراحة والمداورة، والفحش والعفة، والتهمة بالمروق أو بالخيانة — على ألوان النقد في المعارك الأدبية التي شارك فيها طه حسين، والعقاد، والرافعي، وعبد الله عفيفي، وزكي مبارك، وسلامة موسى، وغيرهم من النقدة والكتاب؟

ومن ذا الذي تتبع أثر المجادلات السياسية في مرافعات المحامين بالمحاكم، وفي محاضرات الأساتذة بالجامعة، وفي أساليب البحث العلمي في المجامع، وفي مؤلفات المؤلفين، وفي رسائل الإخوان بعضهم إلى بعض، وفي مناقشات العامة في القهوات وفي المناطق؟

ومن ذا الذي تتبع أثر هذه النهضة في الأدب الشعبي: من الزجل، والمواليا، والمحاورات المسرحية؟

ومن الذي أحصى خطباء الثورة وكتابها، ثم خطباء الانتخابات، ثم خطباء البرلمان، فعرف بهم وكشف عن خصائصهم ومناهجهم وأثرهم في فن الأسلوب وتفصيح الجمل؟

ثم من الذي تتبع تاريخ الأحياء من أدبائنا المعاصرين ورد آثارهم إلى مصادرها، وحاول أن يكشف عن العوامل التي أنشأتهم في الأدب، وعن الظروف السياسية أو الحزبية التي رفعت بعضهم فوق قدره، ووضعت بعضهم دون قدره، ومكانهم الحقيقية من التاريخ الأدبي بالقياس إلى غيرهم من الجمهور؟

وكم خطيباً من خطباء اليوم أنشأته الثورة فلولاها لم يكن، وكم كاتباً، وكم أديباً، وكم مؤلفاً، وكم كتاباً...؟ [illegible] من ذلك حين عرضوا لتكل [illegible] النهضة [illegible] وذكروا أسبابها؟ فهل يكون ذلك لأن الأدب في تاريخ هذه الأمة شيء على هامش الحياة، أو لأن أدباءها ومؤرخيها على هامش الأحياء...؟

«قاف»

تقرير وزير المعارف عن

إصلاح التعليم في مصر

جاءنا والمجلة ماثلة للطبع هذا التقرير ، ولما كان موضوعه أهم موضوع تتوقف عليه السياسة التعليمية في المستقبل وتوجيه الجيل الجديد وسياسته ، كان من الواجب على كل هيئة تعنى بالتربية في مصر ، كهيئة « رابطة التربية الحديثة » و « معهد التربية » وما إلى ذلك من هيئات ، أن تهتم به وتجتمع لدراسته ، وتصدر كل هيئة عنه تقريراً مفصلا لما تراه فيه : من إقرار وجهة النظر في بعض نواحيه ، ونقده في البعض الآخر ، حتى يتراءى لنا بعد الدرس الوافي الشامل في صراحة ومكنة . فنحن أمام جيل جديد يتكون ، ومثله كل عملية معقدة لا بد أن تحل ؛ والتربية هي كل شيء في مستقبل الأمة ... في جسمها وعقلها وخلقها . والواجب على كل من المختصين أن يقول كلمته ، وقد قال الوزير كلمته ، فيجب أن نستمع لباقي المختصين ، ونستخلص من كل ذلك السياسة الرشيدة التي يجب أن نضعها ، والتي هي أمانة في عنقنا للأجيال المستقبلة .

وستتابع المجلة ذلك ، وتفسح صدرها له في الأعداد الآتية إن شاء الله .

في الميزان الجديد :

١ – زهرة العمر

حمل إليّ البريد أمس الكتاب الجديد لتوفيق الحكيم ، وهو عبارة عن مجموعة «رسائل حقيقية» كتبت بالفرنسية في ذلك العهد الذي يسميه «زهرة العمر» . وهي موجهة إلى المسيو أندريه ، الذي جاء وصفه في «عصفور من الشرق» . وقد بدأ الصديقان يتراسلان بعد مغادرة أندريه باريس للعمل في مصانع «الليل» بشمال فرنسا ؛ واستمرت المراسلة إلى ما بعد عودة الحكيم إلى مصر والتحاقه بالسلك القضائي . ثم انقطعت بينهما الرسائل والأخبار وانتهى كل شيء ، وجرفهما تيار الحياة كلٌّ في واديه»(١) . وأما موضوع الرسائل [illegible] — حياته الفنية — جهاده في [illegible] الجمة ، ومحاولاته في سبيل الخلق الفني وما يعتوره من [illegible] ما يصل ، وخصائص ما يقنع ، وفيها لفتات كثيرة عميقة في التربية النفسية ، ووسائل تلك التربية من تفكير ومن وأدب وزادها في الغرب والشرق .

لقد انشرح صدري لهذا الكتاب . وأنا بعد لست بمتحقق مما يمكن أن يكون في هذا الانشراح من عامل الأثرة ؛ فلقد مرت بي أيام شديدة الشبه بما قص الحكيم ، وفي النفس إعجاب بكثير من القيم التي ألقى الكاتب في سبيلها زهرة حياته . والناقد مهما حاول أن ينحي نفسه عما ينقد لابد مستجيب لتلك النفس الأسيرة في الجهر والخفاء . ولكنني مع ذلك قد أدركت في وضوح أن هذا الكتاب أوسع أفقاً وأعمق أثراً من حياة الحكيم وما يشابهها من خبرات . إنه مرحلة من مراحل حياتنا الروحية والثقافية . مرحلة أعتقد أنه سيعيننا على اجتيازها لا مجاوزته — فالأمم لا ينقلها كتاب ، مهما عزز تفكيره — بل التوجيه . سيجتاز تلك المرحلة من قادة الفكر عدد ممن يؤمنون بصدق هذا التوجيه ثم يتدارون خطاه .

وذلك مع تحفظات أبدأ بها لأخلص بعد ذلك إلى قيمة هذا الكتاب الخطيرة .

وأولها ما ألاحظ من رهبة الحكيم الحياة ، وانطوائه على نفسه ، وهو رجل تأمل داخلي «لم يتح لي في لحظة من لحظات حياتي أن أخرج لجو الطبيعة ، وأتنسم أنسامها ، وذلك لأن ما ينتابني من أزمات داخلية قد شغل قلبي دائماً عن الطبيعة . إن عيني منصرفتان دائماً إلى أعماق قلبي»(٢) وهذا في الحق ليس إلا جانباً من ظاهرة عامة عند الحكيم ، فمن البين أن في نفسه شهوة مسيطرة ، هي [illegible] هي مصدر ما يجد من قلق وشك [illegible] أن يدفعه إلى أوربا ، وهو الرث [illegible] المتكبر ، الفتى الوافد ، السمج الطبع ، السلس القياد ، السريع التأثر ، الوضيع الرأي . فإذا تملكت الفنون والآداب تملك عليه أمره مشكلاً ذاتاً فلا يعود يرى غيرها ، وكان في هذا موضع الخطر ، فإن المعرفة غير المباشرة من كتب ومحاضرات ومتاحف لم تلبث أن طغت في نفسه على المعرفة المباشرة . فهو يحدثنا أنه كان يفضل البقاء في باريس عاكفاً على القراءة والتحصيل على أن يصاحب إخوانه المصريين إلى شاطئ بحر أو قرية جبل ، وهو يعلل سر إعراضه عن «ساشا» بما أظن من شغف باستغراقه في تغذية نفسه بألوان الفنون . وهكذا ولدت في قلبه رهبة من الحياة التي أصبح يخشى أن تصرفه عن عدته فضعف في وسائل المعرفة المباشرة من مغامرة في المجتمع ، وسياحة في بقاع الأرض ، وتقليب للبصر في مناظر الجبال والقبح التي نستطيع أن

(١) مقدمة الكتاب .

(٢) ص ٢٠٦ .

لا نحملها بكل مكان ، إذا استطعنا أن نخرج أنفسنا من عواطفنا الداخلية لننشرها في الخارج ، على أن نستردها بعد ذلك ، أوفر غنى وأرهف ذوقاً . ولقد كنا نفهم عندئذ أن يتجه الحكيم اتجاهاً روحياً صوفياً خالصاً ، ولكنه لم يفعل ، وذلك لأن معدن نفسه فيما يبدو لم يخلق للتصوف . أين تقابه من ثورات الخيام ؟ بل من انفعالات تاجور ؟ الحكيم مفكر ، مفكر في الحياة : حياته وحياتنا ولكن تفكيره لم ينهض على الملاحظة المباشرة . قارن بينه وبين بيراندللو مثلاً ، تدرك الفرق الواضح لساعتك . بيراندللو يفكر بحواسه ، أما الحكيم فبعقله ، ولا أدل على ذلك من أن تراه يعالج كبرى المسائل الإنسانية علاج من لم تمسه عن قرب . استمع إليه يقول عن الحب هذا اللغز الخطير الذي لن يحله العقل ، لأنه جوهر الحياة — جوهر الشباب على الأقل — : «يخيل إلي أن الحب في هذا العالم عضو سوف يتمكن العلم الحديث من ... أن نعتبر الإنسانية شيئاً كبيراً» (١) . وفي موضع آخر : «وإياك أعرف أن تحب مقاما كبير المعنى في الحياة . في كل حياة ؛ وربما كان الحب هو الشيء الوحيد الجليل الذي نحس به ومن أجله نحن البشر» ؛ ما سر هذا التناقض ؟ أو ما تراه في صدور الرأيين عن العقل ؟ أما الحياة فتسخر من كل ذلك . الحياة لا تعرف الفروض العقلية ومهارة التفكير . الحياة سيل ذو اتجاه واحد .

هذا النحو العقلي هو ما سبق أن أوضحته في نقدي لبجماليون ، وإنه لمما يشجعني من توفيق الحكيم أن روحه النبيلة الذكية قد رأت ما رأيت وعبرت عنه في قوة ووضوح لا أصدق بأخريه في قولك إلى أصلح أن أكون رياضياً ، وأن أفكاري وتصرفاتي تكاد تقوم على طريقة هندسية أو حسابية أو جبرية . هذا صحيح ، ولا أدري كيف اهتديت إلى ذلك ؛ أأتبع الأخف كذلك . وهذا ما سوف يهدم كل عمل مسرحي أو فني أحاول إنشاءه . إني أتقاضى الحياة والعواطف كما هي ، وكما رآها ويحسها دهماء الناس ، وركوني إلى الطريقة الرياضية في تعريف أفكاري وأخلاقي لمصيبة كبرى . وإليك دليل آخر في قطعة «الحلوة» التي أرسلتها إليك . إنك ولا شك لم تجد فيها أي صورة تنطبق على الحياة وعواطف الحياة . ولكنك قد وجدتها متمشية مع العقل والمنطق الذي تقتضيه فروض خاصة أنشأتها أنا في البداية . تلك هي الرياضة فرض وعقل ومنطق . التصوير الحديث أخرج من حسابه العواطف البشرية وجعل أساسه الهندسة والمنطق العقلي الواعي وغير الواعي ، والموسيقى الحديثة أيضاً ... يا للبلاء ! إني أحب الفن الحديث وأقلده أحياناً وأخشاه وأخشى منه على نفسي ... » (١)

ورغم ثقة الكاتب في قيمة ما عمل ، فهمنا الثالث لا ... النفوس الكبيرة . ودع عنك جوهره ... فذلك ما لا يستطيعه إلا من ضمن الخلود . ثم انظر معي إلى نمو الروح الهندسية esprit de geonetrie كما يسميها بسكال ، عند كاتبنا ، وطغيانها على ما يسميه نفس الكاتب الفرنسي «روح الدقة» esprit de pinesse ثم ابحث عن أسباب ذلك ، أو ما ترى أن سيطرة الشهوة العقلية — شهوة المعرفة غير المباشرة — وما استتبع ذلك من انصراف عن الحياة ، وضيق بها ، كما تشهد الصفحات التي يترجم فيها الكاتب للاحتكاك بالمحيطين في حياته القضائية ، كانت من أهم الأسباب لتوجيه الحكيم سجين نفسه ، سجين عقله .

ولقد حاول كاتبنا الناقد الذكي أن يرى في عادة لموضوعه وتصريفه للحوار أسلوبه الخاص . ولكننا

(١) ص ٣٠ .

(١) ص ٥٥ و ٥٦ .

يلاحظ ما سبق أن وضحناه ، وهو أن بناءه القصصي ومسير حياته وأشده واتجاه الفكر ، والحياة تشوه الخطط أشد تشويها من أن تنطوي تحت خط من خطوط العقل ، والشخصية الروائية مهما آمنا بالخير الداخلي لابد ممزقة — في الحياة — كل منهج مرسوم . أولا ترى إلى كاتب كدستويفسكي كيف تدفق بعض رواياته — الأبله مثلا — كما يتدفق سيل الحياة لا يحده شاطئ ولا يسجنه مجرى . والحكيم كرجل تفكير لم يعد يرى للصورة جمالا يستقل به ، فاللغة عنده « أداة يسيرة لنقل الأفكار النبيلة »(١) ، والأسلوب عنده هو روح الكاتب وشخصيته ومنهجه في التأليف ، وهذا حق ولكنه ليس كل الحق ، فهناك أيضا فن العبارة ، وما ينبغي أن تدفعنا ثورتنا المشروعة على أدب اللفظ الذي أفسد حياتنا الروحية قرونا طويلة إلى تحطيم ذلك الفن ، والسجع والتكلف الأجوف لا [illegible] لا يقدحان في المبدأ العام الذي [illegible] الفنون وأغنى به في الأداء . ونحن [illegible] مذهب من المذاهب الحديثة ، إلى [illegible] يصاغ منها الأدب كما تنحت التماثيل ، ولكننا نؤمن ، ويجب أن نؤمن ، بأن الكثير من الأفكار الرائعة والأحاسيس العميقة تفقد من جمالها ، إن لم تفقده كله ، إذا عريت من جمال الصورة ، بل إن التفكير والإحساس كثيرا ما يضيعان ، إذا عجزنا عن إمساكهما ، اللفظ الدال . وكم من كاتب يحدثنا عن موضع الصعوبة في الخلق الفني الإنساني فنجده في الاحتيال على الفكر أو الإحساس حتى يطلق إلى اللفظ . وليس من شك في أن سر الخلود في الكثير من عيون الأدب يرجع جانب كبير منه إلى خصائص الصياغة . وهل أدل على صحة ما نقول من استحالة ترجمة الشعر الخالص ؟(٢)

وهكذا نستطيع أن نجمل التحفظات التي رأيناها :

١ — عدم الإيمان في الحياة طلبا للمعرفة المباشرة .

٢ — شدة وطأة التفكير الرياضي وعدم تنمية روح اللفتة التي ترى التفاصيل والفارقات وتحرص عليها لدلالتها الإنسانية لا لتأييدها لفكرة عامة أو اتجاه نفسي مسيطر ، كما يريد المؤلف في إحدى صفحات كتابه .

٣ — عدم الإيمان بجمال الصياغة والشكل Le culte de la forme مع أنه إيمان بجمال المطلق ، ورحم الله أفلاطون إذ قال : « لو صيغت الحقيقة امرأة لأحبها جميع الناس » .

هذه هي مواضع نقدي على الكتاب وصاحب الكتاب حرصت على التنبيه بها لأني أقدر مبلغ الأثر الذي سيحدثه هذا الكتاب في النفوس ، كما أقدر قوة [illegible] المؤلف القراء فيما هو حق [illegible] وما من شك أن القارئ عندما يقرأ [illegible] ما أرجوه أن يفعله — سيحس بإيمان كاتبه إيمانا لا يدفع ، أيمانا صادرا عن نفس مخلصة . ثم كم فيه من ضياء ! كم فيه من فهم عميق سليم لمعنى الثقافة الإنسانية !

هذا الكتاب سيمثل ، كما قلت ، مرحلة من مراحل حياتنا الروحية والثقافية ، وذلك ما نحاول أن نبينه في المقال الآتي . وأما هذا المقال فلست أتجه به لغير مشكلة النقد عند القارئ . وهناك مشكلة أخرى هي التي أدعو القارئ إلى أن يتناول بها هذا الكتاب ، تلك هي مشكلة الفهم إلى مشكلة المشاركة في الحس والإدراك .

محمد مندور

(١) ص ٢١٦ .

(٢) أرجو أن ألفت النظر إلى أني أتفق هنا رأي الكاتب = في أنه فن العبارة . وليس معنى هذا أنه ليس بمفكر أسلوب شخصي ، فهذه مسألة أخرى .

إلى الحبيبة المجهولة

صورتك الحسناء مرسومة ... بريشة الفنان في خاطري

قلبي رآها كل حين ولم ... ينعم رؤيا وجهها الناظري

ورؤية الأطلال فتانة ... كأن فيها ذكرى ساحر

مصورة من خيلات الصبا ... فيشنها كالزنبق العاطر

تشع بالفن وتوحي به ... قدسية في دنيا الطاهر

رمز لدنيا الحسن بين الورى ... ومصدر الإلهام للشاعر

حبيبتي هل يناديك الهوى ... قلبي من الشوق على جائر

وأين من حبك بالملتقى ... مثل فؤاد الصب الشاكر

هل يسمع الكون أنين الهوى ... رواية من أنفس الحائر

هل يسطع الحب فيمحو دجى ... هذا الفؤاد الخاشع الحائر

طيفك في الأحلام لا ينثني ... عن زورقي وأهديه من زائر

هل يطول الصبر حتى أرى ... تحقيق هذا الحلم الزاهر

أنور أحمد الخاص

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر